



التراث العربي الإسلامي، قراءات ومستقبل

محمد عابد الجابري وطه عبد الرحمن أنموذجان

رؤوف مخلوفي

طالب دكتوراه، فلسفة عربية إسلامية، جامعة 8 ماي 1945، قالمة

raouf makhlofi19@gmail.com

مقدمة

مع يقظة العقل العربي الإسلامي، وبالخصوص مع النصف الثاني من القرن 19م، بعد كبوة طويلة وصادمة من طرف العقل الغربي الحداثي، ظهرت مشاريع هضمية حاولت أن تنقض الغبار عن جزئية مهمة تسمى التراث، وهو يمثل في الحقيقة الكل في أي انطلاقة حضارية. ومعلوم أن النهضة الغربية على سبيل المثال لا الحصر، لم يتأن لها النجاح إلا بعد قراءتها ودراستها لتراثها وتراث غيرها، وكذلك هو الشأن بالنسبة لمختلف الأمم والحضارات.

تُعدُّ قراءة ودراسة التراث العربي الإسلامي من البناء والأسس القوية والسليمة لأي انطلاقة حضارية عربية إسلامية مُتجددة بأفكار حكمائها وأعلامها ومفكريها. ويعود اختيارنا على وجه الخصوص لمحمد عابد الجابري (1935-2010) وطه عبد الرحمن (1944-). كأنموذجين؛ لأنهما لما ملماهما ملمن ما يمكن أن نسلم به بداية على أنه تأزماً في تناول التراث العربي الإسلامي، بالقراءة والدراسة والتحليل؛ أي بمعنى احتواء رؤيتي المفكرين على أغلب التساؤلات التي قدمت حول قراءة ودراسة التراث العربي الإسلامي.

ونهدف من خلال هذا المقال إلى الوصول إلى قراءة جامعة للتراث؛ بعيدة عن أسر بعض المراجعات الاختزالية والضيقة الطرح والآفاق، والقادرة عن تصور رؤيوية فاعلة وناجحة للنهوض بالحضارة العربية الإسلامية من جديد. كما نهدف إلا تقي الأفكار المنجزة حول التراث، والتي بإمكانها النهوض بالواقع العربي الإسلامي، في أبراج وعلاء التنظيرات الفكرية، وإنما تنزل لواقع التطبيق العملي. وقبل ذلك لابد من مرورها على محكَ الورشات والمختبر العلمية المستشرفة للمستقبل.

يدعونا ذلك إلى طرح الإشكالية الآتية: إلى أي مدى يمكننا الوصول إلى قراءة فاعلة لتراثنا العربي الإسلامي؟ وتنجز هذه الإشكالية الرئيسية لتساؤلات فرعية وهي:

- ما الذي يمثله التراث بالنسبة للعقل العربي المسلم؟
- ما هي أبرز القراءات والدراسات التي قدمت حول التراث؟
- كيف نفهمها ونتمثلها وننزل بها من مستوى التنظير إلى مستوى العمل الورشاتي والمخبري؟

نحاول في هذا المقام مقاربة هذه الإشكالية مستعينين بآليات المنهج التحليلي وكذا المنهج المقارن أحياناً الذي يظهر للقارئ من خلال مقارتنا بين آراء بعض المفكرين.

وهذه القراءة تقوم بنصوص المفكرين المذكورين أعلاه، فاعتمدنا على أهم مؤلف للمفكر محمد عابد الجابري حول التراث، وهو "تراث الحداثة"، وبعض مؤلفات المفكر طه عبد الرحمن، ونذكر منها "تجديد المنهج في تقويم التراث".



1. مفهوم التراث

أ. لغة

كلمة تراث في اللغة العربية مشتقة من الجذر (و-ر-ث). والتراث أصل الناء فيه واو. أما الورث والإرث والتراث والميراث فهما ما ورث. وقيل الورث والميراث في المال، والإرث في الحساب... فالتراث ما يخلفه الرجل لورثته [2]. أما في اللغة الإنجليزية فكلمة "Heritage" [9] معناها لا يكاد يختلف كثيراً عن المعنى العربي. وقد استعملت كلمة Héritage بالفرنسية في معنى مجازي للدلالة على المعتقدات والعادات الخاصة بحضارة ما، وبكيفية عامة "التراث الروحي" [3].

ب. اصطلاحاً

من الصعوبة الوصول إلى ضبط دقيق للتراث نتيجة للحملة المعرفية التي تضمنها وبالخصوص في العصور المتأخرة، وبصفة أخص في الفكر العربي الإسلامي. ومع ذلك سناحول مع المفكر محمد عابد الجابري، تقديم تعريف اصطلاحي للتراث.

يعتقد الجابري أن التراث "أصبح يشير اليوم إلى ما هو مشترك بين العرب، أي إلى التركة الفكرية والروحية التي تجمع بينهم لتجعل منهم جمِيعاً خلْفَ لسلف... ذلك هو المضمون، الحي في النفوس، الحاضر في الوعي، الذي يعطي للثقافة العربية الإسلامية عندما يُنظر إليها بوصفها مقوّماً من مقومات الذات العربية وعنصراً أساسياً ورئيسياً من عناصر وحدتها" [3]. ويضيف: " ومن هنا يُنظر إلى 'التراث' لا على أنه بقايا ثقافة الماضي، بل على أنه 'تماماً' هذه الثقافة وكليتها: إنه العقيدة والشريعة، واللغة والأدب، والعقل والذهنية، والحنين والتطلعات" [3]. فهذا المفهوم قدم لنا الملامح والسمات التي يحملها التراث في الفكر العربي الإسلامي المعاصر. فهو يشير إلى أنه تركة فكرية وروحية يحملها الخلف من السلف. وبالتالي فهو حاضر في النفوس والوعي، وهو ما يجعل الثقافة العربية الإسلامية حاضرة ومتّمِزة ومبدعة، وهو دليل على وحدتها، ومنه فهو يمثل كل ما أنتجه العرب المسلمين ويتطلعون إليه.

2. أهمية التراث العربي الإسلامي

مثل التراث ركيزة أساسية عند مختلف الأمم والحضارات، باعتباره حصنًا ودافعاً نحو التقدم للمستقبل، بعد قراءته ودراسته وتنقيحه طبعاً. والتراث العربي الإسلامي يحمل من القيم ما يجعله يقدم للمجال التداولي العربي الإسلامي، حلولاً لمشكلات تبدو عصيبة على الحل عند البعض، حيث يقول ابن خلدون (توفي 808هـ-1406م) واصفاً عصره "وكأنما نادى لسان الكون بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة" [1]. فلِمَ لا تكون لنا إجاباتنا العربية الإسلامية عن مستجدات عصرنا نحن اليوم؟ ومن ثم نتخلص من عصور التراجع والانحطاط وما أعقها، لتحقيق الاستئناف الحضاري وتقديم حلول للحضارة الإنسانية.

وفي هذا الصدد نستأنس بقول طه عبد الرحمن حيث يقول: "إن الإلقاء عن مسلك التلمذة لا يكون إلا بتحصيل القدرة على عرض ما ليس عند الغير" [4]. والذي نستشفه من هذا القول عموماً هو أن نعمل على تحصيل القدرة الإبداعية للتخلص من هيمنة التلمذة والتلقى من الغرب الأوروبي في مختلف الميادين الحياتية.

3. محمد عابد الجابري وطه عبد الرحمن كقارئين ودارسين للتراث

بعيداً عن أسر وصراع بعض المراجعات الشمولية والتوظيف الأيديولوجي السلبي للتراث، سناحول تقديم رؤى بعض المفكرين العرب المسلمين المعاصرين، وكيف قاموا بمعالجة التراث العربي الإسلامي من زاوية نظر جامعه، واختارنا محمد عابد الجابري، وطه عبد الرحمن.



اقترح محمد عابد الجابري قراءة عصرية للتراث وحاول تطبيقها، تجعل المقرؤ معاصراً على صعيد الإشكالية النظرية والمحفوبي المعرفى حيث يقول الجابري: "أي قراءاته في محیطه الاجتماعي التاريخي من جهة، وفي ذات الوقت جعله معاصراً لنا، من جهة أخرى، على صعيد الفهم والمعقولة" [3]. ويعتقد الجابري أن هذا هو المعنى العميق للاجتهداد كما مارسه كبار علماء الأمة؛ ومنه يتبين الجابري إلى الاجتهداد، ونحن أحوج ما نكون اليوم للاجتهداد لتقديم حلول مشكلاتنا الجديدة.

وينتقد الجابري القراءات المباشرة والسطحية المختلفة للتراث العربي الإسلامي حين يصرح: "أما القوالب الجاهزة الجامدة، سواء أكانت قديمة أو حديثة، فهي لا تمتلك أن تقدم غير شيء واحد هو القراءة التراثية للتراث التي تجر حتماً إلى القراءة التراثية للعصر: قراءة عصرنا بنفس تراثنا أو بتراث آخر وثقافة أخرى" [3]. وهذا يحيلنا إلى المنهج الذي اعتمدته الجابري في قراءة تراثنا العربي الإسلامي، وهو بالمناسبة لا ينكر دور المستشرقين الذين قاموا بنشر وتحقيق عدد لا يأس به من أمثلة كتب التراث العربي الإسلامي، وسلطوا كثيراً من الأضواء على جوانبه بالدراسة والتحليل. لكنه يرى بأنه لابد لأننساق معهم؛ باعتبار أنهم ينضوون تحت لواء حضارة غالبة، فلا بد من تحليل فكرهم والكشف عن أهدافه ومراميه. يقول الجابري: "يجب أن تكون واعين في ذات الوقت بأن اهتمامهم بهذا التراث... لم يكن في أي حال من الأحوال، ولا في وقت من الأوقات، من أجلنا نحن العرب والمسلمين، بل كان دوماً من أجلهم هم" [3].

وهو ما يتضح لنا أكثر مع المستشرق الألماني تجيتسى جاكوبس دي بور Tjitzé Jacobs de Boer ، والذي يعتبر من الأوائل الذين أرخوا للفلسفة الإسلامية ككل، وذلك في كتابه "تاريخ الفلسفة في الإسلام". فالعنوان يوحى لنا بإيمانه بهذه الحضارة، لكن المتأمل في هذا القول من متنه، ومراميه سيجد عكس ذلك حيث يقول دي بور: "وظلت الفلسفة الإسلامية على الدوام فلسفة انتخابية عمادها الاقتباس مما ترجم من كتب الإغريق... فلا نجد لها في عالم الفكر خطوات جديدة تستحق أن نسجلها لها" [3]. فهذا القول في الحقيقة ينمّ عن ذهنية مُتمركة حول الحضارة الغربية وتاريخها، ومبعدة ومسفقة لجهود الحضارة العربية الإسلامية في هذا المضمار.

يرى الجابري أن التراث العربي الإسلامي تراث يتمتع بطابعه العالمي والشمولي؛ فهو عالي باعتبار أنه تراث حضارة عالمية، في فترة من فترات تاريخها المشرق؛ وهو شمولي لكونه يمس جميع مناحي الحياة الفردية والجماعية حيث يقول: "إن الفصل بين هذا الجانب وذاك في تراثنا العربي الإسلامي لشيء صعب حقاً" [3]، أي أنه من الصعب الفصل فيه بين المعارف والعلوم المكونة له.

يقترح علينا الجابري منهجاً تحليلياً يصلح للتعامل مع تراثنا العربي الإسلامي ومع التراث الإنساني بصفة عامة، وي تقوم هذا المنهج بالموضوعية والمعقولة إذ يقول: "والتراث كما قلنا هو شيء ينتمي إلى الماضي، القريب أو البعيد. ولذلك كان لابد للتعامل معه تعاماً علمياً، من التزام أكبر قدر من الموضوعية وأكبر قدر من المعقولة. وإذا كان هذان الشرطان مطلوبين في كل عمل علمي فهما مطلوبان هنا أكثر، ولذلك لابد من الإلحاح عليهم. ذلك لأن التراث بما أنه شيء 'حاضر فينا ومعنا' فهو أقرب إلى أن يكون ذاتاً منه إلى أن يكون موضوعاً، وبالتالي فنحن معرضون إلى أن يحتوينا بدل أن نحتويه" [3]. نستشف من هذا القول أن الجابري يركز على مفهومي الموضوعية والمعقولة كشرطين أساسيين في قراءة ودراسة التراث، وذلك بهدف الوصول إلى قراءة جدية للتراث العربي الإسلامي، وينسحب هذا المعنى على كل تراث إنساني.

يسلمنا هذا الطرح للتراث إلى قراءة ودراسة مغايرة للتراث العربي الإسلامي، تحاول إعادة إحياء الإبداع والألق الفكري والاجتهداد في الفكر العربي الإسلامي، وإعادة الاعتبار لما تم تبخيسه. يرى طه عبد الرحمن أن الفكر العربي الإسلامي المعاصر اتجه إلى تقويم التراث بتنزعتين: "النزعـة الأولى مضمونـية تقوم على أن حصيلة التراث مردها إلى المحتويـات بحسب الحاجـة والاستـعمال والـهدف، أما النـزعـة الثانية فـهي تجزـئـية تقوم على تقـسيـم المـحتـويـات والمـضـامـين

وتصنيفها إلى مجالات وقطاعات متمايزة فيما بينها، مع مبدأ المفضالبة بينها على أساس من الانتقاء، والنتيجة المنطقية التي يتوصل إليها هي العلاقة الضرورية بين النزعة المضمنية كمقدمة، والتزعة التجزئية كنتيجة [8]. من هذا المنطلق يوجه طه عبد الرحمن سهام النقد إلى الأنماذج الفكرية للجابري على أساس أنه متناقض في قراءته ودراسته للتراث العربي الإسلامي حيث يرى بأن نموذج الجابري في تقويم التراث قد وقع في تعارض فادح، وهو القول بالنظرية الشمولية، والعمل وفقاً للنظرة التجزئية [6]. ومعنى ذلك أن عقلانية الجابري متناقضة، وذلك للانفصال بين النظرية والتطبيق في أنموذجه.

فالجابري ينطلق من نقده لسلوك المستشرقين، ويدعو إلى النظر إلى العلوم العربية الإسلامية ككل وأصل واحد، لكننا عندما نلجم باب التطبيق وننطلع إلى النتائج نصطدم بمنظومة الجابري في تقسيمه للتراث إلى أجزاء مختلفة، ومفضالبة بينها بأسلوب انتقائي غير مبرر. يشرح ذلك طه عبد الرحمن بقوله: "قسم التراث إلى دوائر ثلاثة سمها بالأنظمة المعرفية، وهي: 'البرهان' والبيان' والعرفان'. وهذه عنده دوائر متباعدة في آلياتها، لا رابط بينها إلا المصارعة أو المصالحة، ومتفضالبة في نتائجها، لا يرقى فيها العرفان إلى مستوى البيان، ولا يسمو فيها البيان إلى مقام البرهان، ولا ينزل الرتبة العليا في هذا المقام إلا الفكر الرشدي" [6]. لهذا فإن طه عبد الرحمن في تفكيره مع الجابري وضده في أن واحد ينتهي إلى نتيجة مفادها أن ثمة تناقضًا بين النظرية والتطبيق في منظومته الفكرية. يرى طه عبد الرحمن بأن هذه النظرة التجزئية المتفاضلة لم تستطع النهوض بواقع الأمة العربية الإسلامية.

بهذا المدخل يرى طه عبد الرحمن أنه يجوز أن نحمل التراث على معينين اثنين: "أحدهما، المعنى الموسّع للتراث، وهو أن التراث يشمل النصوص الدينية المؤسسة (القرآن الكريم والسنّة الشريفة) واجتهدات المسلمين جمیعاً... إذ يقول [الله] عز وجل: ﴿أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: 32]. فالقرآن والسنّة هما إرث للمؤمنين، أي يندرجان في تراث المسلمين، والثاني المعنى المضيق للتراث، وهو قصر دلالة التراث على اجتهدات المسلمين" [5]. ومنه يرى طه عبد الرحمن أن الذي يريد أن يقرأ ويدرس التراث، فإما أنه يرجع إلى التراث بالمعنى الموسّع أو يرجع إليه بالمعنى المضيق. وبالنسبة للذى يرجع إليه بمعناه الموسّع، فإنه سيعود إلى النص القرآني والسنّة لكي يستمد منها القوة والمدد لاجتهداته.

ويبيّن لنا طه عبد الرحمن أن القراءات النقدية للتراث، والتي حصلت في السياق الفكري الغربي لم تكن بتلك الحدة التي نجدها عند بعض مفكرينا الذين انتهوا إلى نتيجة وهي، إما إلغاؤه كليّة بحجّة الدخول في عصر الحداثة، وإما انتقاء أجزاء منه يعتبرها البعض بأنها ستمكّنهم من التقدّم. يقول طه عبد الرحمن: "فالاشغال الغربي بالتراث كان تأييضاً لقوماته وإحياء لقيمته" [5]. فهذه القراءات للتراث تنتهي حسب طه عبد الرحمن إلى ترك أغلب التراث، أو الانقطاع عنه كلياً. فالباحث عن مفاهيم موجودة عند الغرب وفي ثقافته وتسلیطها على التراث العربي الإسلامي، دون نقدّها وتحميصها ومن غير تمكن من آلياتها، يتعارض مع البحث العلمي الهدف إذ يقول طه عبد الرحمن: "في حين أن من أراد نقد التراث، فيتعين عليه أن يطلب وسائل تناسب هذا التراث" [5]. ومن جهة أخرى، ويرى طه عبد الرحمن أنه يتوجب علينا إيجاد منهجية تناسب خصوصية تراثنا، ولا تكون واردة من خارج تراثنا العربي الإسلامي.

ولم يبخس طه عبد الرحمن بعض الاجتهدات في قراءة ودراسة التراث العربي الإسلامي، مثل دعاء الربط بين التراث والمعاصرة، ولا ينكر بأن هناك نتائج إيجابية توصلوا إليها، ولكنّه ينبعنا إلى نقطة مهمة حيث يقول: "بيد أنه يبقى أن نفرق بين أمرين: بين الروح والمقاصد التي تحكم في هذا التراث من جهة، وبين تجلّيات هذه الروح وتحقيقات هذه المقاصد من جهة ثانية؛ والذي يحتاج إليه لاستئناف العطاء هو أن نتبين هذه الروح بوصفها جملة من المقاصد والقيم والمبادئ التي انبني عليها التراث وتحكمت في عملية توليده وتطوريه" [5].



ولعل أهم خصيصة ومبدأ توصل إليه طه عبد الرحمن في قراءته ودراسته للتراث هو ما يسميه "مبدأ التداول"، والمقصود به: "أن التراث الإسلامي أو الحضارة الإسلامية دائمًا تستوعب الوافد إليها أو المنقول إليها استيعاباً يُخضعه لقيم المعرفية والقيم اللغوية والقيم العقدية الخاصة بها" [5]. فمثى تلقينا مضموناً أو مفهوماً من مجال غير مجالنا التداولي، وجُب أن نخضعه لمقتضيات التداول العربي الإسلامي.

وفي وقوفه عند الآليات التي أنتجت المضامين العربية الإسلامية التي هي، إما استدلالية أو لغوية، تبين له أن التراث العربي الإسلامي مُشبع إلى درجة كبيرة بالآلية المنطقية، وهذا ما يقصد قوله: "لقد كان للآلية المنطقية دور كبير في إنتاج المعرفة الإسلامية، لذلك كان استخدامي لها في الكشف عن المبادئ أو الروح التي يتحدد بها تراثنا" [5]. يدل ذلك دلالة كافية على عدم تقليد طه عبد الرحمن للغرب الأوروبي، بل جاء بنقده المنطقي للتراث والذي يختلف عن النقد والمعالجة التاريخية الغربية لتراثها.

4. من التنظير إلى الواقع الفعلي

تأسيساً على ما سبق ذكره وما نود تبيينه في هذا العنصر، هو أننا حاولنا إبراز بعض النقاط المشتركة بين الرؤيتين؛ والتي نعتقد بأنها المؤسسة لقراءة ودراسة فاعلة للتراث العربي الإسلامي، بعيداً عن الطرح المُبدد لجهودهما بالتنافر والحدية، للمضي بها لتنفتح على الواقع العربي الإسلامي الفعلى الفاقد لحقيقة وبوصلة إدراك الاستئناف الحضاري العربي الإسلامي من جديد، والواقع الحضاري الإنساني المأزوم.

وتبقى محاولات المفكرين العرب المسلمين سواء في قراءة ودراسة إشكالية التراث، أو في غيرها من الإشكاليات المطروحة، في السياق العربي الإسلامي في مستوى التنظير. وذلك لأن الورشات والمحابر لم تُفتح بعد من قبل الباحثين والدارسين لتحقيق تلك الآمال على مستوى الواقع الفعلى. إننا نلاحظ أن "الكثير من هؤلاء المفكرين فارق الحياة دون أن نرى لشعاراتهم تحققوا ولا لمشاريعهم تجسداً في أرض الواقع، وما زلت نطمئن في النهاية" [7]. فالعمل والاشغال الجدي على التراث يعطي لجهود مفكرينا قيمة ومعناها الحقيقي، شريطة ابتعاقها من سياقنا وواقعنا ومتطلباته وأماله.

المراجع

- [1] ابن خلدون: المقدمة، دار الفكر، بيروت، 2007.
- [2] ابن منظور: لسان العرب، مج. 2، دار صادر، بيروت.
- [3] الجابري، محمد عابد: التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991.
- [4] طه، عبد الرحمن: الحق العربي في الاختلاف الفلسفى، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء، 2006.
- [5] طه، عبد الرحمن: الحوار أفقاً للفكر، الشبكة العربية للنشر والأبحاث، بيروت، 2013.
- [6] طه، عبد الرحمن: تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
- [7] مسرحي، فارح: المهام الجديدة للمثقف في السياقات العربية الإسلامية، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، الجزائر، 2018.
- [8] مقرورة، جلول: فلسفة التواصل في الفكر العربي المعاصر: طه عبد الرحمن وناصيف نصار بين القومية والكونية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2015.
- [9] Bull, Victoria : Oxford Learner's Pocket Dictionary, Oxford University Press, 2008.